الدلالات اللغوية والبلاغية لأسلوب الاستفهام التقريري
في القرآن الكريم و دور السياق النصي في تفجيرها

أ / محمد شيباني
أستـــاذ مساعـــد
المدرسة العليا للأساتذة–بوزريعة–

مقدمة:

إنّ الخصائص المميّزة لرسالة خاتم الأنبياء عليه وعليهم صلوات الله وسلامه، من العموم، والشمولية والديمومة جعلتها تحوي في خطاباتها أنواعًا من الأساليب شتّى؛ ذلك أنّها موجّهةٌ إلى الناس كافّة، ومن طبيعتهم أنّهم مجبولون على الجدال والحجاج والخصومة، فاقتضى ذلك تنوعًا في الأساليب البلاغيّة الإقناعية التي تُظهر الحجج، وتُفحم الخصوم، وتدحض شُبه المناوئين، والمعاندين، والجاحدين.

ومن بين الأساليب البلاغيّة والإقناعيةعلى حد سواء، أسلوب الاستفهام التقريريّ الذي ورد ذِكرُه في القرآن الكريم – وهو كتاب الرسالة الخالد – بكثرة؛ فقد ذكر صاحب معجم حروف المعاني في القرآن الكريم[1] حوالي أكثر من تسعين آية، ورد فيها أسلوب الاستفهام التقريريّ من غير اشتراكٍ في المعنى بينه وبين الأساليب الاستفهامية الأخرى، كالإنكار، والتعجّب، وغيره.

ولا يتسنى لنا الكشف عن جماليات هذا الأسلوب البلاغيّ الراقي بكل المقاييس الأدبية الرفيعة إلا من خلال السياق القرآني الذي تضمّنه؛ كون هذا الأخير له فاعلية في تفجير دلالاته اللغوية والبلاغية والشرعية على حدّ سواء.

وقبل الخوض في بيان فاعلية السياق في تفجير دلالة العبارة القرآنية المتضمنة لأسلوب الاستفهام التقريري، وكشف اللثام عن الأسرار البلاغية لهذا الأسلوب، وجمالياته الفنية نستهلّ بحثنا بطرق بعض المباحث التي أحسبها ذات صلة وثيقة بالموضوع قيد البحث؛ وذلك بذِكر مقدّمة عامّة حول الاستفهام، وأنواعه، ثم نردفه به، فنقول مستعينين بالله!:

الاستفهام بمفهوميه: اللّغويّ والاصطلاحي:

الاستفهام لغة: تكاد تُجمع معاجم اللّغة العربية على أنّ معنى الاستفهام لغة هو طلب الفهم، يقول ابن منظور في لسان العرب، في مادة (ف هـ م) "فهم: الفَهْمُ : معرفتك الشَيْءَ بالقلبِ، فَهِمَهُ فَهْمًا، وَفَهَمًا، وَفَهَامَةً: عَلِمَهُ؛ الأخيرةُ عن سيبويه، وفَهِمْتُ الشَّيْءَ: عَقَلْتُهُ، وعَرَفْتُهُ، وَفَهَّمْتَ فُلاَناً، أَفْهَمْتَهُ، وَتَفَهَّمَ الكلامَ: فَهِمَهُ شيئًا بَعْدَ شَيْءٍ ، وَرَجُلٌ فَهِمٌ: سَرِيعُ الفَهْمِ، وَيُقَالُ: فَهْمٌ، وَفَهَمٌ؛ وَأَفْهَمَهُ الأمرَ، وَفَهَّمَهُ إيّاهُ: جَعَلَهُ يَفْهَمُهُ؛ واسْتَفْهَمَهُ: سَأَلَهُ أَنْ يُفَهِّمَهُ، وَقَدِ استفْهَمَنِي الشَّيْءَ فَأَفْهَمْتُهُ، وفَهَّمْتُهُ تَفْهِيمًا"[2].

الاستفهام اصطلاحًا : تباينت أقوال البلاغيّين حول المعنى الدقيق للاستفهام؛ فمنهم من يرى أنّ الاستفهام، والاستخبار، والاستعلام شيءٌ واحد؛ ومنهم من فرّق بين هذه المصطلحات بذكر بعض الفروق

الدقيقة في معناها البلاغيّ، ومنهم من اكتفى بالمعنى اللّغَويّ، وهناك من جمع الأقوال، ودقّق فيها النظر، وصاغ تعريفًا للاستفهام يراه جامعًا مانعًا؛ و هذه أقوالهم مرتَّبةً حسبَ ما ذكرنا:

قال ابن يعيش (ت 643هـ) في شرح المفصّل: "الاستفهام والاستعلام والاستخبار بمعنىً واحد، فالاستفهام مصدَرُ استفهمْتُ أي طلبتُ الفَهْمَ، وهذه السينُ تفيد الطلب؛ وكذلك الاستعلام والاستخبار مصدرا استعلَمتُ واستخبرتُ"[3].

وذكر صاحب الطراز تعريفا للاستفهام فقال: " ومعناه طلب المراد من الغير، على جهة الاستعلام؛ فقولنا: طلب المراد؛ عامّ فيه وفي الأمر، وقولنا: على جهة الاستعلام، يخرج منه الأمر"[4].

والاستخبار: هو طلب خبر ما ليس عند المستخبر[5].

وهناك من فرّق بين هذه المصطلحات، " فذكر ناس أنّ بين الاستخبار، والاستفهام أدنى فرق، قالوا: ذلك أنّ أولى الحالين الاستخبار، لأنّك تستخبرُ فتُجاب بشيءٍ، فربّما فهمته، وربَّما لم تفْهمْه، فإذا سألتَ ثانيةً فأنت مستفهمٌ؛ تقول أفهمني ما قُلتَه لي"[6].

على أنّ صاحب الفروق اللُّغَويّة ذكر فرقًا بين السؤال والاستفهام حاصله :" أنّ الاستفهام لا يكون إلاّ لما يجهله المستفهم، أو يشُكُّ فيه، وذلك أنّ المستفهم طالب لأن يفهمَ، ويجوز أن يكون السائل يسأل عمّا يعلم، وعن ما لا يعلم، فالفرق بينهما ظاهر"[7]، واكتفى ابن هشام الأنصاري بقوله:" وحقيقته طلبُ الفهم"[8].

والناظر من البلاغيّين المعاصرين للمادّة التراثية قد خرج بقراءة للمفهوم الاصطلاحيّ للاستفهام، مفادها أنّ:" الاستفهام الحقيقي طلبُ العلم بشيءٍ لم يكن معلومًا من قبلُ، وهو الاستخبار الذي قالوا فيه: إنّه طلب خبر ما ليس عندك، أي طلب الفهمِ، وله أدواتٌ كثيرة "[9]، وهو من العوارض التي تطرأ على مكوّناتِ الجملةِ الأساسية[10].

أدوات الاستفهام وأنواعه:

ولأسلوب الاستفهام عمومًا أدوات [11] موضوعة له هي: الهمزة، وهل، وما، ومن، وأيّ، وكم، وكيف، وأين، وأنّى، ومتى، وأيّان[12].

كما ينقسم إلى قسمين: حقيقي؛ وهو المبيّن أعلاه، ومجازي؛ وهو الذي عبّر عنه علماء المعاني بالخروج عن مقتضى الظاهر إلى معانٍ أخرى تستفاد من سياق الكلام منها: التقرير،الإنكار، التعجّب، الأمر، النهي، والتهكم...الخ

مفهوم الاستفهام التقريريّ:

إنّ أسلوب التقرير بالاستفهام، أسلوب بديع انفردت به لغة الضادِ عن باقي اللغات السامية، وكثُر ورودُهُ في القرآن الكريم، على اختلاف صُوَرِهِ لما له من مقاصد بلاغية، وإقناعية، وإعجازية، فهو يُلجِئُ المخَاطَبَ إلى الإقتناع بالحقيقة، دون جبرٍ أو قَسْرٍ أو إكراهٍ.

1. **التقرير لغةً:** يقول ابن فارس رحمه الله في مَعْرِضِ ذكره لكلمة "قَرَّ": "القاف، والرّاء، أصلان صحيحان، يدُلُّ أحدهما على بَرْدٍ، والآخَرُ على تَمَكُّنٍ، فالأوّلُ: الْقَرُّ وهو الْبَرْدُ؛ ويَوْمٌ قَارٌّ، وَقَرٌّ؛ قال امرؤ القيس:

إِذَا رَكِبُوا الْخَيْلَ وَاسْتَلأَمُوا تَحَرَّقَتِ الْأَرْضُ، وَالْيَوْمُ قَرّْ

وَلَيْلَةٌ قَرَّةٌ وَقَارَّةٌ وَقَدْ قَرَّ يَوْمُنَا، يَقِرُّ، وَالقِرَّةُ: قِرَّةُ الْحُمَّى حِينَ يَجِدُ لَهَا فَتْرَةً وَتَكْسِيرًا؛ يَقُولُونَ: "حِرَّةٌ تَحْتَ قِرَّةٍ"، فَالْحِرَّةُ: الْعَطَشُ، وَالقِرَّةُ قِرَّةُ الْحُمَّى، وَقَوْلُهُمْ: أَقَرَّ الله عَيْنَهُ، زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُ من هذا البابِ، وَأَنَّ لِلسُّرُورِ دَمْعَةً بَارِدَةً، وَلِلغَمِّ دَمْعَةً حَارَّةً وَلذلك يُقَالُ لِمَنْ يُدْعَى عَلَيْهِ: أَسْخَنَ الله عَيْنَهُ، وَالْقَرُورُ: الماءُ البَارِدُ يُغْتَسَلُ به، يقال: مِنْهُ اقْتَرَرْتُ.

وَالْأَصْلُ الآخَرُ: التَّمَكُّنُ، يُقَالُ: قَرَّ، واسْتَقَرَّ؛ والقَرُّ: مَرْكَبٌ مِنْ مَرَاكِبِ النِّسَاءِ، وقال:

فَإِمَّا تَرِينِّي فِي حَالَة جابر على حَرَجٍ كالقرِّ يَخْفِقُ أَكْفَانِي

ومن الباب: القَرُّ: صَبُّ المَاءِ في الشّيءِ، يُقَالُ: قَرَرْتُ المَاءَ، والقَرُّ: صَبُّ الكلامِ في الأذنِ.

ومن الباب: القَرْقَرُ: القَاعُ الأَمْلَسُ، ومنه مَا يَلْتَزِقُ بِأَسْفَلِ الْقِدْرِ كأنّه شَيْءٌ اسْتَقَرَّ فِي القِدْرِ.

ومن الباب عندنا– وهو قياسٌ صحيح– الإِقْرَارُ: ضِدُّ الْجُحُودِ؛ وذلك أَنَّهُ إِذَا أَقَرَّ بِحَقٍّ فَقَدْ أَقَرَّهُ قَرَارَهُ؛ وقال قوم في الدعاء: أَقَرَّ الله عَيْنَهُ؛ أي: أعطَاهُ حتّى تَقِرَّ عَيْنُهُ، فلا تَطْمَحُ إلى مَنْ هُوَ فَوقَه؛ ويومُ القَرِّ: يوم يَسْتَقِرُّ النَّاسُ بِمِنًى؛ وَذَلِكَ غَدَاة يَوْمَ النَّحْرِ".اهـ [13]

2. **التقرير اصطلاحًا:** اتّفق علماء البلاغة على أنّ الاستفهام التقريريّ، هو حَمْلُ الْمُخَاطَبِ عَلَى الإِقْرَارِ، وَالاِعْتِرَافِ بِأَمْرٍ قَدِ اِسْتَقَرَّ عِنْدَهُ[14].

وإذا أنعمنا النَّظَرَ فِي الْحَدِّ.. فإنّنا نلمس بعض اللطائف البلاغيّة، والدلالات اللُّغَوِيّة، التي لا نجد مناصًا من قبولها، منها ما تدُلُّ عليه عبارة "حمل المخاطَب" من أنّ هناك نوعٌ من الإكراه النّفسِي الذي يمارسه أسلوب التّقرير على القِوَى الإدراكيّة للمخاطب؛ ثُمّ إنّ التّقرير له سلطان على النّفس من حيث التأثير؛ فنجد أنّ أسلوب التّقرير يلامس النّفس، ويُخالجُ مشاعرها حتّى لا يستطيع المخاطَبُ بِهِ رَدَّهُ، بل ينقاد ويستسلم للحقيقة وإن كانت ممزوجة بالعلقم؛ وهذا لا يتنافى مع قولنا إنّه يُلْجِئُ المُخَاطَبَ إلى الاقتناع بالحقيقة دون إكراه، فمقصودنا ههنا "الإكراه المادي"، أمّا الذي نثبته إنّما هو الإكراه الذي تمارسه البلاغة على النّفس الإنسانية، وهذا ما جعل العربيةَ تنفرِد بمميّزاتها، وخصائصها عن بقيّةِ اللغاتِ الأُخرى، مع ما أكرمها الله به حيث أَنْزَلَ القرآن بلسانها.

وإذا أسقطنا المعنى اللّغَويّ للتّقرير على معناه في اصطلاح البلاغيّين، وجدناه ينطبق تمام المطابقة عليه؛ فعبارة " الْقِرَّةُ قِرَّةُ الْحُمَّى حِينَ يَجِدُ لَهَا فَتْرَةً وَتَكْسِيرًا" فالمحموم في هذه الحالة يشعر بنوع من الأريحية، كالتي تخالط النّفس إذا حملت على الإقرار بأسلوب التّقرير.

وهو الشعور نفسُه في عبارتي: "وَالأَصْلُ الآخَرُ: التَّمَكُّنُ"و"القَرْقَرُ: القَاعُ الأَمْلَسُ، ومنه مَا يَلْتَزِقُ بِأَسْفَلِ الْقِدْرِ كأنّه شَيْءٌ اسْتَقَرَ فِي القِدْرِ"، فأسلوب التقرير يتمكّن من النّفس الإنسانية، ويلتزق في صميمها، كأنّه

شيءٌ استقَرَّ فيها، حتّى لا تَجِدَ بُدًّا مِنَ الاعتراف بالحقيقة المقرَّرة، اللهمّ إلاّ أن تجحَدَ هذه الحقيقة؛ والجحود خُلقٌ ذمِيمٌ اعتنقه المغضوب عليهم من يوم:«لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنّك من المسجونين»[الشعراء: ٢٩] ومن يوم:«لئن لم تنته لأرجمنّك واهجرني مليّا» [مريم: ٤٦]،ومن هنا يظهر لنا أنَّ كلّ ما ورد في القرآن من تقرير؛ أقرَّ به كلّ الخلقِ، مؤمنِهم، وكافرهم حتّى وإن جحد الكُفَّارُ الحقَّ بألسنتهم، فقد استيقنته أنفسهم، قال الله سبحانه: «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوّا» [النمل: ١٤]، فأخبر سبحانه أنّ الدافع الذي جعل هؤلاءِ يجحدون كلمة الحقّ، إنّما هو الظلم، والطغيان والتكبّر، وحبُّ الاستعلاء ليس إلاّ.

ومن أمثلة التقرير، قول الله سبحانه، وتعالى: «ألم نشرح لك صدرك»[الشرح: ١]، وقوله سبحانه: «ألم يجدك يتيما فآوى»[الضحى: ٦] وقوله تعالى:«أليس الله بأحكم الحاكمين»[التين: ٨]، "ويجب أن يَلِيَ الأداةَ الشيءُ الذي تقرّر بها؛ فتقول في تقرير الفعل: "أَضَرَبْتَ زيدًا " والفاعل نحو "أأنت ضربت"، أو المفعول نحو: "أزيدًا ضربت"، كما يجب في الاستفهام الحقيقي"[15]؛ ففي الأوّل كان السؤال عن الفعل والشكّ فيه، أمّا في الثاني فليس الشكّ في الفعل، وإنّما في الفاعل من هو؛ وهكذا.

3. **أقسامه:** يأتي أسلوب الاستفهام التقريريّ ، بمعانٍ عدّة منها[16]:

أ- بمعنى التحقيق والتثبيت: وهو كثير في التنزيل، يقول العبد الصالح، الخَضِر عليه السلام، لموسى عليه السلام، «ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا» [الكهف: ٧٥]، فهو تحقيق وتثبيت لما قاله لموسى من قبل، وقد أخبرنا القرآن الكريم، أنّ موسى عليه السلام، لمّا طلبَ من الخضر عليه السلام، أن يتبعه بيّن له أنّه لا يستطيع؛ قال تعالى: «فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه منلدنّا علما قال له موسى هل أتّبعك على أن تعلّمن ممّا علّمت رشدا قال إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا» [الكهف: ٦٥ – ٦٨]؛ فقول العبد الصالح إذن: «ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا»[الكهف: ٧٥]، معناه: إنّني قد قلت ذلك، فهو تثبيت للقول، وتحقيق له، ومنه قوله سبحانه في شأنِ إخوةِ يوسف عليه السلام: «فلمّا استيئسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرّطتم في يوسف» [يوسف: ٨٠] وهم لا ينكرون ذلك؛ فهو يريد تثبيت أخذ الميثاق، وتحقيقه؛ والمعنى: قد علمتم أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقًا من الله؛ ومن ذلك قول فرعون لموسى عليه السلام:«قال ألم نربّك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين» [الشعراء: ١٨]، فإنّ موسى لا ينكر ذلك وإنّما يريد فرعون تثبيت هذا الأمر؛ أي: قد ربّيناك فينا وليدًا؛ وهذا القسم من الاستفهام التقريريّ ، هو إنشاء من حيث اللفظ، خبرٌ من حيث المعنى؛ إنشاء من حيث اللفظ لأنّ صيغة الاستفهام من أقسام الإنشاء–كما هو معلوم–؛ خبر من حيث المعنى، لأنّ معناه–كما تقرّر– تثبيت الخبر وتحقيقه، فمعنى: «ألم نربّك»[الشعراء: ١٨]: قد ربّيناك، ومعنى: «ألم تعلموا» [يوسف: ٨٠]: قد علمتم، ومعنى: «ألم نشرح لك صدرك»[الشرح: ١]: قد شرحناه، وهذا القسم كذلك لا يطلب المُستفهِم له جوابًا، لأنّه إنّما يريد تحقيق الخبر فقط، فهو لا يحتاج إلى جوابٍ من المخاطب.

ب- طلب إقرار المخاطب بما يريد المتكلّم ؛ وقد ورد بكثرة في كتاب الله أيضًا؛ قال تعالى: «ألست بربكم»[الأعراف: ١٧٢]، وقال سبحانه: «أليس الله بكاف عبده» [الزمر: ٣٦]، وقال عزّ من قائل: «أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم» [يس: ٨١]، ويختلف هذا القسم عن سابقه بما يلي:

- هو إنشاء لفظًا ومعنًى، فقوله سبحانه :«ألست بربكم»[الأعراف: ١٧٢] إنشاء من حيث اللّفظ لأنّه على صورة الاستفهام؛ والاستفهام من أقسام الإنشاء. وهو إنشاء كذلك من حيث المعنى؛ لأنّ المقْصِدَ الأسمى للآية الكريمة حَمْلُ الناس على أن يُقِرُّوا بربوبيّة الله جلّ وعلا وإلهيته، وهكذا في بقية الآيات الأخرى.
- إنّ هذا القسم يحتاج إلى جوابٍ من المخَاطب، ألا ترى أنّه قد جاء في كثير من آيات الذِّكر الحكيم جوابٌ عن هذا النوع من الاستفهام، مثل قوله سبحانه: «ألست بربكم قالوا بلى» [الأعراف: ١٧٢]، وقوله تعالى:«أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم» [يس: ٨١]، وفي الأثر أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان إذا قرأ سورة التين، فبلغ قوله سبحانه: «أليس الله بأحكم الحاكمين»[التين: ٨]، قال بلى وأنا على ذلك من الشاهدين[17].

4. **أدواته:** اختصّتِ الهمزة بالتقرير دون غيرها من الأدوات، لأصالتها ولأنّها أمّ الباب؛ ولا خلاف بين البلاغيّين في أنّ الهمزة ترد للتقرير، بل إنّ منهم من أفرد الهمزة بخروجها عن الاستفهام، إلى معانٍ أخرى تُفهم من السياق؛ كما فعل ابن هشام في كتابه المغني[18].

على أنّ أهل العلم اختلفوا في إمكانية ورود التقرير بغير الهمزة، " فذهب ابن جنّي إلى أنّه لا يُستعمل التقرير بهل، ويستعمل بغيرها من أدوات الاستفهام، وقال الكنديّ "ذهب كثير من العلماء في قوله «هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرّون» [الشعراء: ٧٢ – ٧٣]، إلى أنّ "هل" تشارك الهمزة في معنى التّقرير والتوبيخ ... ونقل أبو حيّان عن سيبويه أنّ استفهام التقرير لايكون بهل، إنّما يستعمل في الهمزة، ثمّ نقل عن بعضهم أنّ: "هل" تأتي تقريرًا كما في قوله سبحانه:«هل في ذلك قسم لذي حجر»[الفجر: ٥][19].

وإن كان التقرير يقع بالحرف "هل"، فإنّه قليل الوُرود في كلام الله سبحانه؛ مقارنة مع الهمزة، فقد كان لها حصّة الأسد في ورودها لإفادة معنى التقرير، مع اختلاف في صورها[20]؛ فترد مصحوبة بـ "لم"، وذلك في مثل قوله تعالى: «ألم نشرح لك صدرك» [الشرح: ١]، وتأتي مع "ليس" نحو قوله سبحانه: «أليس الله بأحكم الحاكمين»[التين: ٨]، كما ترد من غير نفي، كقوله تعالى: «أأنت قلت للناس اتّخذوني وأمّيَ إلهين من دون الله »[المائدة: ١١٦].

والمدوّنة التي بين أيدينا حسب المصادر التي رجعنا إليها في تنقيحها إنّما التقرير ورد فيها بالهمزة في غالبها؛ باستثناء بعض الآيات التي أفادت التقرير مع الحرف "هل"، لذلك كان التقرير بالهمزة أبلغ لما لصوتِ الهمزة من حدّةٍ في أذنِ السامع.

مقاصد الاستفهام التقريريّ البلاغيّة.

إنّ المقْصِد البلاغيّ العامّ، الذي يحققه أسلوب الاستفهام التقريريّ ، هو التقرير؛ ذلك أنّ أسلوب التقرير هو قبل كلّ شيء أداة لغوية تكفُل الاتّصال بين بني البشر؛ إنّه الرسالة تصدر من الباثّ ليستقبلها المتلقّي، ولا بدّ للرسالة من مقاصد يريد المتكلّم تحقيقها، فهو يجعل الجملة الإنشائية جملةً خبرية مثبتةً [21]، ومحقّقة، فلا يدع للمخاطَبِ فرصةً للنقاش، والأخذ، والرّدّ، فهو يستقبل الجملة التقريريّة حقيقة لا مناص من الإقرار بها، وقبولها دون إكراهٍ مُسَلَّطٍ مِنَ المتكلّم؛ فإذا كنت مثلاً كثير الإحسانِ إلى صاحبك، فقابل إحسانك إليه بالإساءةِ إليك، فتقول له على سبيل التقرير: "ألم أُحسِنْ إليك؟ ألم أفتح لك كثيرًا من أبوابِ الخير؟" فأنت لا تريد منه جوابًا، وإنّما بلّغته أمرًا معلومًا لديهِ مستقرًا عندهُ معرفتُه. فكأنّك قلت: "قد أحسنتُ إليك، وفتحتُ لك.."، فلا يملك هذا المخاطَبُ إلاّ أن يُقِرَّ بالحقيقة الملقاةِ على قلبه كأثقل شيءٍ في الوجودِ معتذرًا، خجولاً ممّا صدر منه، مرتدعًا عنه.

وإذا تأمّلنا قول قوم إبراهيم عليه السلام له: «أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم» [الأنبياء: ٦٢]، وجدْنا أنَّ قومَ إبراهيم عليه السلام يريدون أن يُقَرِّرُوه بأنّ تكسير الأصنام كان منه عليه السلام، فقد علموا ذلك من قوله عليه السلام لهم:«وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولّوا مدبرين »[الأنبياء: ٥٧]، وقولِ الملإ:«سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم» [الأنبياء: ٦٠] ليكون ذلك أدعى لتقريعه، وإقامةِ الحجّة عليه [22]، لذلك ردّ إبراهيم عليه السلام بقوله: «بل فعله كبيرهم» [الأنبياء: ٦٣]؛ يقول صاحب البلاغة وفنونها: "والغرض البيانيّ من الاستفهام التقريريّ ، إلزام المخاطَبِ بالحجّة، وانتزاع الاعترافِ منه، بما يريده المتكلّم، وفي ذلك غرض نفسيّ، وذلك لأنّ البيانَ، والبلاغة لهما صلةٌ وثيقة بقضايا النفس، وبعلم النفس كذلك"[23].

فها هو هذا الأسلوب البديع– التقرير– يمارس الإكراه الداخلي على النفس الإنسانية؛ فيجعل النّفس وصاحبها في صراعٍ حتّى تُقِرّ بما حُمِلت عليه؛ وهناك تضع الحرب أوزارها، لتنبعث الأريحيّة مُرسلةً أشعّتَها من قلبٍ خُلِعَتْ عنه غشاوة الإنكار.

ورحم الله سيّد قطب؛ لو تتبّع أُسلوبَ التقرير في القرآن ووظّف عليه نظريّتَه المشهورة "التصوير الفنّي"[24]، لكان عملاً لم يَقُمْ به أحدٌ قبلَه، ولن يتسنّى لأحدٍ بعده؛ فخذ مثلاً قول الله سبحانه وتعالى على لسان فرعون:«أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون» [الزخرف: ٥١]؛ فإضافةً إلى ما يفيده من تقرير، فإنّه يجعل المخَاطَبَ يسيح بخياله في قصور فرعون العظيمة، وفي بساتينه، وحدائقه، وأنهاره، ويصوّر مدى اغترار فرعون بملكه، وافتخاره على قومه؛ فالاستفهام التقريريّ مع ما يفيده من تقرير، هو" آلةٌ تصويريّة في يَدِ قائله ممّا يجعله، أشدّ بلاغةً، وأكثر تأثيرًا"[25].

ولكي تتجلّى آلة التصوير الفنيّ في أسلوب الاستفهام التقريريّ، نمتطي سفينة القرآن، لنتلُوَ معًا قول الله سبحانه، وتعالى:«ألم يجدك يتيما فآوى»[الضحى: ٦]؛ فإنّك تجد نفسك أمام صورةٍ حزينة؛ البُؤْسُ مُخَيِّمٌ عليها، تنظُرُ إلى هذا اليتيم شاردًا، تائهًا في ظلام الحرمان، تتقاذفه المِحَنُ من كل جانب؛ وفي هذه اللحظة التي يملأُ اليأسُ قلبه، تَشْرُقُ عليه شمس العناية الإلهيّة التي لا تغيب أبدًا؛ هنالك يجد مأواه، وأُنسه، ودِفْءَهُ؛ كلّ هذا في كلمةٍ واحدة هي: "فَآَوَى".

وهنا نكتة ينبغي الوقوف عندها؛ تتّضح جليًا من خلال مزج أسلوبي التصوير والتقرير معًا في صياغة الكلام العربي، ألا ترى ذلك أشَدَّ تأثيرًا في النفس، وأدعى إلى اعترافها واستسلامها؟، بلى!، إنّ النّفس تنقاد أكثر؛ فهي تُحِسُّ وكأنّ لأسلوبِ التّقرير سُلطاناً بداخلها تُدركه، ولا يُمْكِنُ لها وصفُه، أو رَدُّهُ.

على أنّه قد يفيد التقرير أغراضًا ومعانيَ أخرى يقتضيها المقام منها:

- **التوبيخ**[26]: يأتي في لسانِ العرب ما يفيد الإثبات، والتوبيخ معًا، وذلك في مثل قوله سبحانه:«ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها» [النساء: ٩٧]؛ أي إنّ أرضَ الله واسعةٌ؛ فهلاّ هاجرتُم فيها؛ إنّها واسعةٌ بفجاجها وجبالها، وفلاتها، بسهولها وهضابها، فما منعكم أن تبحثوا لكم عن مكان تعبدون الله فيه كما أمركم؛ فخرج مخرج التوبيخ على تركهم للهجرة إلى الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم.
- **الافتخار**[27]: وذلك في مثل قوله تعالى على لسان فرعون:«أليس لي ملك مصر»[الزخرف: ٥١].
- **العتاب**[28]: وذلك في قوله تعالى: «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق»[الحديد: ١٦]، فالمعنى فيه على التقرير مع العتاب؛ أي: آن الأوان لأن تخشع قلوب المؤمنين لذكر الله؛ وإذا كانت الآية تعاتب المؤمنين؛ فإنّنا نلمس نوعًا من التلطّفِ في خطاب الله تعالى لعباده– وهو اللطيف سبحانه– ممّا يجعل المؤمن يشعُر بالأنس في خطابِ ربِّ البريّة؛ فيفِرُّ منه إليه، ومن عذابه إلى رحمته.
- **التهديد والوعيد**: وذلك في قوله تعالى: «ألم نهلك الأوّلين» [المرسلات: ١٦]، والمعنى[29]: إنّكم تعلمون كيف كانت عاقبة الذين كانوا من قبلكم، أهلكناهم فلا ناصر لهم، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فهو تقرير لهم بأنّ من كان قبلهم أُهلكوا، وفي نفسِ الأمر تهديد لهم، ووعيد لهم بأنّ سنّة الله فيمن ينتهك حروماته معلومة.

"وقد يفيد الاستفهام أكثر من معنى كالتقرير مع التوبيخ والتعجيب، كما في قوله تعالى: «أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب» [البقرة: ٤٤]،"أتأمرون" الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجيب من حالهم... وكان الأحبار يأمرون من نصحوه في السرّ من أقاربهم وغيرهم باتّباع محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ولا يتّبعونه؛ وقيل كانوا يأمرون بالصدقةِ، ولا يتصدّقون؛ وإذا أُتُوا بالصدقات ليُفرِّقوها، خانوا فيها..."[30]؛ والمعنى في التقرير: إنّكم لتأمرون الناس بالبرّ والمعروف، وهذا معلوم لديهم؛ والمعنى في التّعجّب: عجبًا لأمركم! كيف تأمرون الناس بشيءٍ، وأنتم تأتون ضدّه! كيف طابت أنفسكم بهذا ؟!؛ والمعنى في التوبيخ: بئس الخُلُق، وبئس العمل ما تقومون به؛ أليست لديكم عقول تفكّرون بها؟، أم إنّه لا عقل لكم؛ بأيِّ منطقٍ تُفكّرون؟. ولذلك ترى السرّ حين أعقبَ الله جلّ وعلا ذلك بقوله:«أفلا تعقلون»[البقرة: ٤٤].

وأسلوب التقرير بالاستفهام، هو أيضا من أنجع الوسائل التي تكفل التربية الإسلامية الحقّة؛ مهما كان مصدر الخطاب، سواء من نبيٍّ لأمّته، أم من والد لولده، أو من شيخٍ لتلميذه؛ إذ التربية تعتمد أساسًا على ملامسة الوجدان، وإثارة العاطفة حتّى تنقاد لرغبة المُرَبّي، ولن يتأتّى هذا إلّا بالوسائل الحكمية الإقناعية التي تُحمَل في كنفِ الحلم، والرفق، والمجادلة بالتي هي أحسن؛ ولنا في الحبيب المصطفى صلّى الله عليه وسلّم

أسوة، فقد جاء إليه عمر بن الخطاب بصحيفة من التوراة، وأخذ عمر يقرأ، ووجه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يتغيّر، ويتمعّر، فقال أبو بكر لعمر: ثكلتك الثواكل يا ابن الخطّاب، أما ترى ما بوجه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟، أمسخ الله عقلك؟ فتوقف عمر، ثم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:«أمُتهوّكون فيها يا ابن الخطّاب؟ ألم آتكم بها بيضاء نقية؟، فو الذي لا إله إلّا هو لو كان موسى حيًّا، فتبعتموه و تركتموني لضللتم سواء السبيل، ووالذي لا إله إلّا هو، لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلّا أن يتّبعني»، ولمّا سمع عمر مقالة الحبيب، صلوات الله وسلامه على الحبيب، لم يملك إلاّ أن قال: "أعوذ بالله من غضب الله، وغضب رسوله، رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينا، وبمحمّد صلّى الله عليه وسلّم نبيًّا"؛ استسلام تام، وانقيّاد كامل لله ربّ العالمين، بكلمة واحدة هي: "ألم آتكم بها بيضاء نقية" جعلت من عمر يرتقي إلى أعلى مراتب الإخلاص، واليقين؛ إنّه نموذج فريد من تربية المصطفى صلّى الله عليه وسلّم المربّي الأعظم، تخرّج من خلاله جيل فريد لم يشهد التاريخ قبله مثله، ولن يشهدَ التاريخ بعده مثله؛ ولو استرسلنا في الأساليب الإقناعية التي مارسها المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بتوظيف التقرير في تربية جيل الصحابة لانقطعت آجالنا دون استيفائها، بأبي هو وأمي صلّى الله عليه وسلّم[31].

ثمّ إنّ العلاقة المباشرة بين النفس الإنسانية، والأسلوب التقريريّ ، جعلته من أقدر الأساليب على حمل النفس على استرجاع الأحداث الماضية، وكأنّها تقع في الحاضر، عن طريق التذكير؛ من ذلك ما خاطب به فرعون موسى عليه السلام في قوله تعالى: «ألم نربّك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين» [الشعراء: ١٨] فأراد فرعون أن يذكّر موسى بالإحسان الذي كان منه تجاهه لمّا كان صبيًّا لا حول له ولا قوة، فامتدّت إليه يد فرعون بالعناية والرعاية، حتّى اشتَدَّ؛ ومَرَدُّ ذلك [32] أنّ فرعون لمّا سمع عن طريق السحرة أنّه سيولد رجل من بني إسرائيل يكون هلاك ملكه على يديه أخذ يُقتّل أبناءهم، ويستحيي نساءهم حتّى أوشك بنو إسرائيل على الفناء، فاعترض عليه بعض حاشيته بقوله: يا فرعون! الكبار بآجالهم يموتون، والصغارُ يُذبحون، يوشِك أن يفنى بنو إسرائيل. فأشار عليهم أن يذبحوا عاما، ويتركوا عاما؛ ففعلوا!.

ومع حرصِ فرعون فإنّه هان في عين الله سبحانه، فقضى الله أن يتربّى موسى في حجر فرعون الوضيع وبإشرافه، ورعايته؛ فلمّا أرسله الله لدعوة فرعون أخذ فرعون يُذكّرهُ بما كان منه من إحسان في سالف ما مضى من حياته قائلاً: «ألم نربّك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين»[الشعراء: ١٨ – ١٩] ولم ينكر موسى عليه السلام ذلك، بل أقرّ بقوله: «قال فعلتها إذا وأنا من الضآلّين»[الشعراء: ٢٠]، فكان الغرض من الاستفهام التقريريّ في هذه الآية حمل المخاطب على التذكُّر والاعتراف بما كان في الماضي.

وإذ ينفرد أسلوب التقرير بهذه الغايات، والمقاصد عن باقي الأساليب البلاغيّة الأخرى في الكلام العربي؛ فإنّه يعتبر من أرقى مراتب البلاغة، من حيث الوضوحُ والفصاحةُ، وإبرازُ المعاني المترابطة، والمتداخلة في الخطاباتِ المتنوعة، مع إحاطتها بالآلة الإقناعية، وملامسة الوجدان.

الفروق البلاغيّة بين الاستفهام التقريريّ، وبقية الأساليب الاستفهامية الأخرى:

إنّ البحث في الفروق البلاغيّة بين الأساليب الاستفهامية، ومحاولة تحديد نقطة الافتراق، وإيجاد الفروق الجوهرية الدقيقة التي تفصِل بين معانيها طِلْبَةٌ عزيزة، ومِنْحَةٌ جليلة، لا يظْفَرُ بها إلاّ من صَفَتْ قَرِيحَتهُ، وملأَ بالعلمِ صدرَه، وأتعب في التّنقيب عن دقائق المعاني فكرَهُ، وأَخْلَصَ لصاحب المدد، والعونِ، والهداية- عزّ وجلّ- نيّتَه، وقلبَهُ.

على أنّ العمدة في بحثنا هذا إنّما هو صفاء القريحة، والملَكة اللُّغَويّة؛ فالفروق بين أساليب الاستفهام تُدرَك، ولا يمكن وصفها.

وإن كان علماء البلاغة قد حدّدوا الفرق بين أسلوب الاستفهام الإنكاري، والاستفهام التقريريّ، على وجه الخصوص؛ ودون التطرّق إلى الأساليب الاستفهامية الأخرى؛ إلاّ أنّ كلامهم هذا لا يكون مطّرِدًا في كلّ الأمثلة، وسنوضّح ذلك إن شاء الله بعد ذكر أقوالهم، ومناقشتها، بما يَسَّرَ الله لنا من فهم.

يقول الإمام الزركشيّ في ذكر حقيقة التقرير؛ وتبعه في ذلك السيوطيّ، ما نصُّه: "وحقيقة استفهام التقرير، أنّه استفهام إنكار، والإنكار نفي، وقد دخل على المنفيّ، ونفي المنفيّ إثبات" [33]؛ ومعنى هذا أنّ الإنكارَ نفيٌ والتقريرَ إثباتٌ وحيْثُ وُجِدَ الإنكارُ فلا تقرير؛ وحيثُ وُجِدَ التقرير فلا إنكار؛ ولا تخفى علّة هذا القول على كلّ ذي لُبّ، ودليل ذلك ما جاء في قوله تعالى:«أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون»[البقرة: ٤٤]، فقد جعلها ابن هشام من الإنكار التوبيخيّ، وصرّح السيوطيّ أنّ هذه الآية اجتمع فيها التقرير والتوبيخ والتعجيب، وكذلك في قوله تعالى: «ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها»[النساء: ٩٧]، فالمعنى فيها على التقرير، أي: إنّ أرضَ الله واسعة، وعلى الإنكار، أي: أنّ الله سبحانه وتعالى ينكر عليهم، تخلُّفَهُم عن الهجرة، فالفرق في المعنى فقط؛ وليس في اللفظ، يقول صاحب البلاغة وفنونها: "والفرق بينه[يشير إلى الإنكار]، وبين الاستفهام التقريريّ أنّك في الاستفهام التقريريّ تريد تثبيتَ الأمر وتحقيقه كما في النوع الأوّل، أو انتزاع إقرار المخاطَبِ واعترافه، كما في القسم الثاني، أمّا في الاستفهام الإنكاري فأنت لا تقرّر المخاطَبَ في شيءٍ وإنما تُنكِر عليه، وتستهجن ما حدث في الماضي أو ما يمكن أن يحدث في المستقبل"[34].

وإن كُنَّا نشُمُّ في هذه السطور رائحة القول بفصل الإنكار عن التقرير لفظًا ومعنًى، وهو ما يدلّ عليه قوله:" أماّ في الاستفهام الإنكاري فأنت لا تقرّر المخاطب في شيءٍ" إلاّ أنّ ما يُهِمُّنَا في هذا المقام هو ما تحويه الآية الكريمة، من المعاني، فهي تستهجن ما صدر عن الكفّار في الماضي من عدم الهجرة في الأرض إلى جانب تقريرهم بأنّ أرض الله واسعة.

على أنّ هناك بعض الجماليات في صياغة الجملة التقريريّة، وما يُعْطَفُ عليها، كما قرّر ذلك أهل الفنّ والصنعة من أنّ: "الكلام مع التّقرير موجب، ولذلك يُعطَفُ عليه صريح الموجب، ويُعطَفُ على صريح الموجب، فالأوّل كقوله تعالى: «ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك» [الشرح: ١ - ٢]، وقوله:«ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالّا فهدى» [الضحى: ٦ - ٧]؛ والثاني كقوله تعالى:«أكذّبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما» [النمل: ٨٤]"[35]، والمعنى في الآية الأولى: لقد شرحنا لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك؛ وفي

الثانية: لقد وجدك يتيمًا فآواك، ووجدك ضالاً فهداك، وفي الثالثة: كذّبتم بآياتي مع عدم علمكم بها. وهذا أسلوب بديع انفرد به الخطاب القرآنيّ، وهو في كلام البشر مختلف[36].

وإذا كان العدل خُلُقًا كريمًا لا يتّصف به إلّا المقرّبون؛ فإنّ أسلوب التقرير من أقوى الأساليب البلاغيّة على إقرار العدل في التعامل مع الطرف الآخر؛ إذ يجعل المتلقّي يتحاكم إلى نفسه التي بين جنبيه بعيدًا عن أيّ وسيلة للضغط تكون من المتكلّم؛ فما أحوجنا إلى أسلوب عادل كالاستفهام التقريريّ ، في زمنٍ عزّ فيه العدلُ، وعَزَّ أهلُهُ أيضًا!

فاعلية السياق القرآنيّ في بيان مقاصد الاستفهام التقريريّضمن النص القرآني:

إنّ الوفرة التي حظيَ بها أسلوب الاستفهام التقريريّ في القرآن الكريم مكّنته من تحقيق مقاصد شتّى في جلّ المحاور والقضايا التي طرقها القرآن الحكيم، على اختلافها وتنوّعها، سواء ما تعلّق منها بالجانب العقديّ، أو الأخلاقيّ، أو القصصيّ، أو البلاغيّ.

على أنّ هذه المقاصد لا يمكن لنا معرفتها، أو التوصّل إليها إلا بإيراد الآيات المتضمّنة لهذا الأسلوب البلاغيّ والإعجازيّ– في آن– ضمن السياق الذي وردت فيه؛ إذ السياق في العبارة القرآنيّة وحده الذي يوصلنا إلى الفهم الصحيح لمراد الله تعالى؛ ومن ثَمَّ معرفة المقاصد الشرعية السامية المتوخّاة من النصّ القرآنيّ.

ونريد بالسياق: الآيات داخل السورة، وموقعها بين السابق من الآيات واللاحق، أي مراعاة سياق الآية في موقعها من السورة، وسياق الجملة في موقعها من الآية. فيجب–كي يُفهَم النصّ فهْمًا صحيحًا– أن تُربَط الآية بالسياق الذي وردت فيه، ولا تُقطَع عما قبلها وما بعدها[37].

وللمنهج السياقي بُعدان متكاملان، هما: البعد الداخلي اللّغَويّ، والبعد الخارجيّ الحاليّ أو المقاميّ [38]، ونعني بالأوّل منهما: كلّ ما يتعلّق بالإطار الداخلي لبنية النصّ، وما يحتويه من قرائن تساعد على كشف دلالة الوحدة اللُّغَويّة الوظيفية، وهي تسبح في نطاق التركيب. ونعني بالثاني: مجموعة الظروف التي تحيط بالنصّ، سواء منها الاجتماعية أو البيئية أو التاريخية، كأسباب النزول مثلاً، فهي من أهمّ السياقات الحالية المقامية التي تخدم النصّ القرآنيّ، ذلك أنّ معرفة سبب النزول تعين على فهم الآيات القرآنيّة؛ لأنّ العلم بالسبب يورث العلم بالمسبّب[39].

وهذان البعدان يقدّمان بين يدي فهم النصّ الشرعي نسقًا من العناصر التي تقوّي طريق فهمه، وتفسيره والاستنباط منه؛ لأنّ العلم بخلفيات النصّوص، وبالأسباب التي تكمن وراء نزولها أو ورودها، يورث العلم بالمسبّبات، وينفي الاحتمالات والظنّون غير المرادة، ويقطع الطريق على المقاصد المغرضة، التي لم يَرُمْها الشارع الحكيم، ويُصحّح ما اعوجّ من أساليب التطبيق كإخراج النصّ من سياقه، والاستدلال به معزولاً عن محيطه الذي نزل فيه؛ هذه الأساليب التي أخرجت النصّوص من مقاصدها العليا، ودفعت بها إلى وجوهٍ من المعاني والاستنباطات البعيدة التي لا تخدمها.

وإيضاحًا لما سبق، نورد بعض النماذج القرآنيّة المتضمّنة لأسلوب الاستفهام التقريريّ، محاولين في ذلك تلمّس مكامن الروعة والجمال التي تستشفّ من السياقات المتنوّعة للآيات المنزّلة:

من هذه النماذج الرائعة، قوله تعالى على لسان قوم إبراهيم عليه السلام [40]:«قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم» [الأنبياء: ٦٢]؛ إنّنا إذا أوردنا هذه الآية معزولة عن السياق الذي وردت فيه؛ متناسين تمامًا ما كان من إبراهيم مع قومه، لا نزيد على أن نفهم من الآية أنّه سؤال موجّه إلى إبراهيم عليه السلام، يريد السائل من خلاله أن يقرّره بفعلته بالآلهة دون إدراكٍ منّا بحقيقة هذه الفعلة، ودون استثارة شعورنا نحو الآية الكريمة.

لكنّنا إذا سمعنا الآية ضمن سياقها، في قوله تعالى:«ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنّا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين قالوا أجئتنا بالحقّ أم أنت من اللاعبين قال بل ربّكم ربّ السموات والأرض الذي فطرهنّ وأنا على ذلكم من الشاهدين وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولّوا مدبرين فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلّهم إليه يرجعون قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنّه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنّكم أنتم الظالمون»[الأنبياء: ٥١ – ٦٤].

إنّنا الآن مع هذا المقطع القرآنيّ في جوٍّ مختلف تمامًا عن السابق، إنّنا الآن أمام صورة حيّة، تفيض بالمشاعر والأحاسيس..إنّنا أمام مشهد كلّه حركة، وكلّه صراع بين الحقّ والباطل؛ إنّ إبراهيم عليه السلام لم تكن له حياة خاصّة ينظر فيها إلى شؤونه في عزلة بيئته، بل كانت حياته كلّها مسخّرة لنصرة الحقّ، ودحض الباطل، وإن كان في ذلك هلاكُه؛ وهي حياة كلّ الراشدين في أيّ أمّةٍ من الأمم.

لقد واجه إبراهيم عليه السلام أقرب الناس إليه، وأعزّهم على قلبه: أباه، ومن ورائه قومه، في إيضاح الحقّ، ودعوتهم إليه، ومجادلتهم بالتي هي أحسن عساهم أن يهتدوا، إلاّ أنّهم أصرّوا، واستكبروا استكبارًا؛ ولم يفشل الخليل في دعوته، بل عمد إلى أسلوب جديد في الدعوة إلى الله، وهو أسلوب إنكار المنكر باليد، كيف؟ وهو أعظم منكر على وجه البسيطة، هو منكر الشرك بالله، وفي لحظة من التحدّي للقوم، يقسم الخليل بأن يكيد أصنامهم، فانتهز فرصة غياب قومه وإدبارهم فكرَّ عليها وجعلها حطامًا وفتاتًا بعد أن كانت منتصبة شامخة.

وبعد ما رأى القوم ما حلّ بآلهتهم التي هي مصدر دينهم..حُقَّ لهم أن يسألوا عن مرتكب هذا الفعل الشنيع في نظرهم، وأيّ فعل؟ إنّه تحطيم وهدم ونَسْفٌ لعقائدهم وآلهتهم كلّها، إلاَّ كبيرًا لهم، وما عسى يُغني أمام مئات الآلهة المحطّمة..وحُقّ لهم أن يستنطقوا المتّهم ويقرّروه بفعله بعد أن نسبت التهمة إليه، وفي مرآى ومسمع الناس كلّهم،ومن حكمة إبراهيم عليه السلام– ولا عَجَبْ ! فهو محاط بالعناية الإلهية في أمره كلّه– أنّه نسب هذه الفعلة لذلك الحجر الكبير، وسط ذلك الفتات والذّرّ الصغير، وهنا يأتي الاستسلام والإذعان والإقرار برشد إبراهيم، وغيّهم، وإن تربّصوا بصاحب الحقّ بعد أن أقرّوا به، فليس ذلك إلاّ لجحودهم

وعنادهم واستكبارهم،ولا ضير ، فالمقصد تحقّق:«وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين» [الأنعام: ٥٥].

وهكذا يتّضح جليّاً الفرق الجوهري بين إيراد النصّ القرآنيّ خارج السياق الذي تنزّل فيه، وإيراده داخله وضمنه.

نموذج قرآنيٌّ آخر يزيد بيانًا لدور السياق في تفجير دلالة العبارة القرآنيّة المتضمّنة لأ سلوب الاستفهام التقريريّ، نجده في قوله سبحانه: «والضحى والليل إذا سجى ما ودّعك ربّك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربّك فترضى ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالّا فهدى ووجدك عائلا فأغنى»[الضحى: ١ – ٨]، وقد اجتمع في هذه السورة المباركة السياق الداخلي والخارجي، وهي سورة كما ذكر سيّد قطب رحمه الله [41] بموضوعها وتعبيرها ومشاهدها وظلالها وإيقاعها لمسة من حنان، ونسمة من رحمة، وطائف من ودّ، ويَدٌ حانية تمسح على الآلام والمواجع، وتنسم بالروح والرضى والأمل، وتسكب البرد والطمأنينة واليقين. إنّها كلّها خالصة للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، كلّها نجاء له من ربّه، وتسرية وتسلية، وترويح وتطمين، كلّها أنسام من الرحمة، وأنداء من الودّ، وألطاف من القربى، وهدهدة للروح المتعب، والخاطر المقلَق، والقلب الموجع.

ورد في روايات كثيرة أنّ الوحي فتر عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وأبطأ عليه جبريل عليه السلام، فقال المشركون: ودّع محمّدا ربُّه، فأنزل الله تعالى هذه السورة.

والوحي، ولقاء جبريل، والاتّصال بالله، كانت هي زاد الرسول صلّى الله عليه وسلّم في مشقّة الطريق، فلمّا فتر الوحي انقطع عنه الزاد، وانحبس عنه الينبوع، واستوحش قلبه من الحبيب، وبقي للهاجرة وحده بلا زادٍ وبلا ريّ، وبغير ما اعتاد من رائحة الحبيب الودود؛ وهو أَمْرٌ أشدّ من الاحتمال من جميع الوجوه، عندئذٍ نزلت هذه السورة..نزل هذا الفيض من الودّ والحبّ والرحمة والإيناس والقربى والأمل والرضى والطمأنينة واليقين.

وتأتي السورة لتردّ على المشركين، وتخاطب النبيّ الأعظم صلّى الله عليه وسلّم، قائلة:
يامحمّد!ماودّعك ربّك، وماجفاك، وماقلاك، وماأبعدك، بل سيعطيك حتّى تقرّ عينك، وترضى. يامحمّد ! إنّك كنت من عامّة الناس، ولم تكن شيئًا، ومع ذلك أحاطك ربّك بعنايته، ورعايته، وأسبغ عليك نعمه الظاهرة والباطنة؛ فلقد آواك من اليتم، وأغناك من الفقر، وهداك من الضلالة؛ أو لست تذكُرُ ذلك؟ أفيحيطك بنعمه قبل أن لم تكن شيئًا، ويتخلّى عنك بعد الذي أعدّك له؟ أفبعد أن أكرمك بالنبوّة والرسالة، يتخلّى عنك ويجافيك، ويُروِي غليل الأعداء من التّشفّي فيك، وقد رعاك قبل ذلك؟ إنّ هذا يتنافى مع منطق العقلاء وذوي الألباب؛ أَوَ في شكٍّ أنت مما سمعت يا محمّد؟ إنّ ربّك يقسم قسمًا عظيمًا أنّه لم يتخلّ عنك، ولن يتخلّى عنك، بل سيفيض من نعمه عليك أكثر ممّا كان من ذي قبل. أَمَا آن لك بعد هذا القسم العظيم من ربّ العزّة أن تقول: بلى؟

وإجابة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، وردت في رواية ابن عبّاس رضي الله عنهما عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «سألت ربي مسألة وددتُ أنّي لم أكن سألته، قلت: قد كان قبلي أنبياء؛ منهم من سخّرتَ له الريح، ومنهم من يحيي الموتى، قال: يا محمّد ! ألم أجدك يتيما فآويتك؟ قلت: بلى ياربّ، قال: ألم أجدك ضالاّ فهديتك؟ قلت: بلى يا ربّ، قال: ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ قلت: بلى يا ربّ، قال: ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أرفع لك ذكرك؟ قلت: بلى يا ربّ»[42].

وعلى ذكر سورة الشرح؛ فإنّ سبب نزولها هو نفسه سبب نزول سورة الضحى، فهي نزلت بعدها مباشرة، وقد ذكر المفسّرون عن بعض الصحابة أنّه كان يعتبرهما سورة واحدة. إلاّ أنّ السؤال الذي نواجهه عن هذه السورة، هو: أين يكمن السياق القرآنيّ في الآية، وقد افتُتِحتْ بأسلوب الاستفهام التقريريّ ؟.

إنّ سورة الشرح تشير إلى حادثة تاريخية مشهورة، وهي حادثة شقّ الصدر؛ فقد ذكر القرطبي في تفسيره لهذه السورة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة- رجلٍ من قومه- أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: «فبينا أنا عند البيت، بين النائم واليقظان، إذ سمعت قائلاً يقول: أَحَدُ الثلاثة، فَأُتيتُ بطستٍ من ذهب، فيها ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا، قال قتادة: قلت ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطني، قال: فاستخرج قلبي، فغسل قلبي بماء زمزم، ثم أُعيد مكانه، ثم حُشيَ إيمانًا وحكمة[43]».

والسورة باعتبار السياق الحاليّ المقاميّ توحي بأنّ هناك ضائقة كانت في روح الرسول صلّى الله عليه وسلّم، لأمر من أمور هذه الدعوة التي كُلِّفها، ومن العقبات الوعرة في طريقها، ومن الكيد والمكر المضروب حولها..توحي بأنّ صدره صلّى الله عليه وسلّم كان مُثقلاً بهموم هذه الدعوة الثقيلة، وأنّه كان يحسّ العبء فادحًا على كاهله، وأنّه كان في حاجة إلى عون وممد وزاد ورصيد، ثمّ كانت هذه المناجاة الحلوة، وهذا الحديث الودود: «ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك فإنّ مع العسر يسرا إنّ مع العسر يسرا فإذا فرغت فانصب وإلى ربّك فارغب » [الشرح: ١ – ٨].

وتنتهي هذه السورة كما انتهت سورة الضحى، وقد تركت في النفس شعورين ممتزجين: الشعور بعظمة الودّ الحبيب الجليل الذي ينسم على روح الرسول صلّى الله عليه وسلّم من ربّه الودود الرحيم، والشعور بالعطف على شخصه صلّى الله عليه وسلّم؛ ونحن نكاد نلمس ما كان يساور قلبه الكريم في هذه الآية التي اقتضت ذلك الودّ الجميل..إنها الدعوة..هذه الأمانة، وهذا العبْء ينقض الظهر؛ وهي مع هذا وهذا مشرق النور الإلهيّ، ومهبطه، ووصلة الفناء بالبقاء، والعدم بالوجود[44].

هكذا ندرك تمامًا براعة الاستهلال بأسلوب الاستفهام التقريريّ، باعتبار السياق الحاليّ، المتمثّل في سبب النزول، والحدث التاريخيّ المشار إليه في الآية.

على أنّ مقصد الشارع الحكيم من الاستفهام التقريريّ ، الوارد في السورتين معا، التذكير، لأجل أن يُراعِيَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم هذه المنّة عندما يخالجه ضيق الصدر، مما يلقاه من أذى قومٍ يريد صلاحهم، وإنقاذهم من النّار، ورفع شأنهم بين الأمم، ليدوم على دعوته العظيمة نشيطًا غير ذي أسفٍ ولا كمدٍ[45]، مستشعرًا معية الله في السبيل الشاقّ، والطريق الطويل.

وقد تُختتم السورة القرآنيّة بأسلوب الاستفهام التقريريّ بقصد دفع المخاطَب إلى التأمّل فيما قبله من الإبداع والجمال، كما هو في سورة التين، إذ يقول المولى سبحانه: «والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثمّ رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون فما يكذّبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين» [التين: ١ – ٨]، فلقد افتتح ربّ العزّة سبحانه هذه السورة بالقسم بمخلوقاته العظيمة، أنّه خلق الإنسان في أحسن تقويم..خلقه فسواه فعدله، في أحسن صورة ما شاء ركّبه، فظهرت فيه دِقّةُ صنع الله، وكماله، ثم ردّه إلى أسفل سافلين في النار وبئس المصير، ويستثني من ذلك الذين آمنوا وعملوا الصالحات تحضيضًا منه سبحانه لعباده على التطلّع دائمًا إلى أعلى درجةٍ فُطِروا عليها، فكلّ مولودٍ يولد على الفطرة[46] وقد فطروا على أحسن تقويم؛ فليحذر الذين يخالفون أمره أن يكونوا في أسفل سافلين..وفي هذه اللحظة التي يكون فيها التالي لكلام البارئ سبحانه، يسبح في ملكوته، متأمّلاً لعجيب خلقه، وبديع صنعه، وهيمنة سلطانه على مخلوقاته، إذ بهمزة الاستفهام التقريريّ تقرع سمعه: «أليس الله بأحكم الحاكمين»؟

إنّ هذا المقطع الاستفهامي يجعل من التّالي لهذه السورة يشكّ في تأمّله ونظره، ويدرك قصوره عن الفهم الدقيق للمعاني التي تضمّنتها، فيبادر إلى تكرير التلاوة والتدبّر مرّات ومرّات، ليستسلم أخيرًا في خشوعٍ وذلّ لعظمة الخالق سبحانه، وتغشى جسدَه قشعريرة، فما من ذرّةٍ من جسمه إلاّ ولسان حالها يقول: بلى يا ربّ، سبحانك ما أعظمك!!!

وقد رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه كان إذا قرأها قال: «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين»، وأمر أُمّته بذلك[47].

من خلال هذا وما سبق، تظهر جليّاً فاعلية السياق في تفجير دلالة العبارة القرآنيّة، فكلّ شيءٍ في القرآن أبهر عقول أرباب البيان إلى حدّ الإعجاز: حروفه وألفاظه وجرسه، وفواصله، ونظمه، ومعانيه – فهو الذي لا يملّه قارئه، ولا يمجّه سامعه؛ بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبّة، ولا يزال غضًّا طريّاً، وغيره من الكلام ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغه يُمَلُّ مع الترديد، ويعادى إذا أُعيد، وكتابُنا يُستلَذُّ به في الخلوات، ويُؤنس بتلاوته في الأزمات، وسواه من الكتب لا يوجد فيه ذلك حتّى أحدث أصحابها لحونًا وطرقًا يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها؛ ولهذا وصف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم القرآن بأنّه لا يخلق على كثرة الرّد، ولا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه، وهو الفصل ليس بالهزل؛ لا يشبع منه العلماء، ولا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، وهو الذي لم تنته الجنّ حين سمعته أن قالوا:«إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا» [الجن: ١ – ٢][48]– لكن إذا كانت في سياقها الذي وردت فيه تكون أشدّ تأثيرًا في النفوس من أن تُذكر خارجه، فقولنا: «أليس الله بأحكم الحاكمين»يجعل العقل لا يتردّد في أن يقول مقرًّا: "بلى"، ولا يستقيم له أن يعوّض هذه الألفاظ بغيرها مهما بلغت من درجات الفصاحة؛ لكن إذا ذُكرت ضمن السياق الذي وردت فيه مع إعمال الفكر في عظمة الخالق في خلْقه للإنسان، وجعله في القمّة، في أعلى مستويات الإبداع والإتقان، ثم هوى به إلى الحضيض

في أسفل سافلين، ولم يتركه هملاً، بل فتح له نافذة الأمل في الاستثناء الوارد في السورة، ليسمُوَ دائمًا إلى الكمال، وبين القمّة والحضيض والأمل تأتي همزة الاستفهام التقريريّ لتقرع الآذان بجرسها، والسين بهمسها وصفيرها، ولتحدث في النفس حالة من الخشوع والإقناع والإمتاع ينحبس فيها اللسان عن كلّ كلام، إلّا عبارة: "بلى وأنا على ذلك من الشاهدين".

ولا يخفى على ذي لبٍّ المقصد الأسمى الذي يحقّقه أسلوب الاستفهام التقريريّ في الآية الكريمة من بيان عدل الله وحكمته، وحسن تدبيره لشؤون خلقه بكمال قدرته وإرادته.

ولعلّنا ندرك بعد ما مضى إلى أيّ مدى يحقّق الاستفهام التقريريّ الوظيفة التواصلية المتوخّاة من النصّ القرآنيّ؛ بصفته من أقدر الأساليب على تنشيط آلة الفكر وإثارة مشاعر الوجدان في النفس البشرية، كما يُسهِم في عملية الإقناع القرآنيّة بشكل أوسع، وأفُقٍ أرحب.

ولعلّنا ندرك أيضا فاعلية السياق في تفجير دلالة العبارة القرآنية من خلال هذا الأسلوب الذي جاء حافلا في كلام العليم الخبير سبحانه.

تمّ الكلام وربنا محمود وله المكارم والعلا والجود

وصلّ اللهم وسلم على نبينا محمد

هوامش المصادر المراجع:

[1] محمد حسن الشريف، معجم حروف المعاني في القرآن الكريم، مفهوم شامل مع تحديد الأدوات، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان،1417/1996، الجزء1، ص:75- 86.

[2]ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، الجزء12، ص:459

[3]موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش(ت 643هـ)، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ومكتبة المتنبي، القاهرة، مصر، ج 8، ص:150.

[4]يحي العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1402/1982، ج3، ص:286.

[5] أبو الحسن أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق: أحمد حسن بسج، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1418/1997، ص:134.

وانظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1408/1988، ج2، ص:326. السيوطي جلال الدين: (-معترك الأقران في إعجاز القرآن، تح: أحمد شمس الدين، ط 1، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1408/1988، ج 1، ص: 327، 328. -الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم،المكتبة العصرية، بيروت، لبنان،1418/1997، ج3، ص:234).

[6] ابن فارس، المصدر السابق، ص: 134. الزركشي، المصدر السابق، ج 2، ص: 326. السيوطي، الإتقان، ج 3، ص: 234، معترك الأقران،ج1، ص:327.

[7] أبو هلال العسكري(ت400هـ)، الفروق اللغوية، تح: محمد باسل عيون السود، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1421/2000، ص:48.

[8] ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: ح. الفاخوري، ط 1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1411/1991، ج1، ص:20.

[9]منير سلطان، بلاغة الكلمة والجملة والجمل، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، ص: 159. وانظر: أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، البيان والمعاني والبديع، ط 2، دار القلم، بيروت، لبنان، 1984، ص: 61. السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تح: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، (د.ط)، 2006/1427، ص:178. الخطيب القزويني جلال الدين محمد بن عبد الرحمان(ت 739هـ)، تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع، تح: ياسين الأيوبي، ط 1، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2002/1423، ص: 100. فضل حسن عبّاس، البلاغة فنونها وأفنانها، ط 7، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2000/1421، ص:173.

[10] محمد حماسة عبد اللطيف، بناء الجملة العربية، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1996/1416، ص:10، 192،190،27.

[11]دَرَجَ على ألسنة البلاغيين استعمال لفظ: الأداة، الألفاظ، الكلمات، الآلات، وهي كلها بمعنى واحد، انظر:يحي العلوي، الطراز، ج 3، ص:286، 287، 290. الخطيب القزويني:- تلخيص المفتاح، ص: 100، 102، 103-الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 132. السكّاكي، مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد هنداوي، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000/1420،ص:418.عضد الدين الإيجي(ت756هـ)، الفوائد الغياثية في علوم البلاغة: تح: عاشق حسين، ط 1، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1991/1412، ص:140. السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج1،ص:327، 328.

[12] السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج 1، ص:328. وزاد الإمام السكاكي: "أم" المعادلة، انظر: السكاكي، مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد هنداوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000/1420، ص:418. وانظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج 3، ص:234. الخطيب القزويني، تلخيص المفتاح، ص: 100. يحي العلوي، الطراز، ج3، ص:286. القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تقديم علي بوملجم، الطبعة الأخيرة، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 2000، ص:132. سعد الدين التفتزاني(ت792هـ)، مختصر السعد شرح تلخيص كتاب مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد هنداوي، ط1، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 2003/1423، ص:196. أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 78- 83. أبو العباس المغربي(ت 1128هـ)، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، تح: خليل إبراهيم خليل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003/1424، ص:466. فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، ص: 173. أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، ص:62.

[13] أبو الحسن أحمد بن فارس(ت 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، ط 1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1411/1991، ج5، ص:7.

[14] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 2، ص:331. السيوطي، معترك الأقران، ج 1، ص:329. الإتقان، ج3، ص:236. ابن هشام، مغني اللبيب، ج1، ص:31. وزاد: ثبوته أو نفيه. عكّاري، المعجم المفصّل في علوم البلاغة، ص:132.

[15] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص:333. ابن هشام، مغني اللبيب، ج1، ص:31.

[16]فضل حسن عبّاس، البلاغة فنونها وأفنانها، ط7، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2000/1421، ص:197-199.

[17]انظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط 1، دار ابن حزم، 2002/1423، ج4، ص: 3119. السيوطي، الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1990/1411، ج6، ص:622.

[18] ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج1، ص:29.

[19] السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج1، ص:329. وانظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص:333.

[20] فضل حسن عبّاس، البلاغة فنونها وأفنانها، ص:199.

[21] انظر: الزركشي، البرهان، ج2، ص:327.

[22]فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، ص:200 .

[23]فضل حسن عباس، المرجع نفسه، ص:200.

[24]لسيّد قطب رحمه الله، كتاب قيّم ضمنه هذه النظرية سمّاه: "نظرية التصوير الفنّي في القرآن".

انظر سيّد قطب، نظرية التصوير الفنّيّ في القرآن، ط8، دار الشروق، بيروت، لبنان، 1983.

[25]منير سلطان، بلاغة الكلمة والجملة والجُمَل، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، ص:260.

26 الزركشي، البرهان، ج 2، ص:336. فتحي أحمد عامر، المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، ص:369.

27 الزركشي، المصدر السابق، ج2، ص:335.

28 الزركشي، المصدر السابق، ج2، ص:336. فتحي أحمد عامر، المرجع السابق، ص:369.

29 أنظر : السعدي عبد الرحمن بن ناصر، تيسيرالكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان،قدّم له الشيخ عبد الله ابن عبد العزيز بن عقيل، و محمد بن صالح العثيمين، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2003/1424 ، ص:1003.

30 منيرسلطان، المرجع السابق، ص:164-165. وانظر السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج1، ص:330.

31 الحديث رواه الإمام أحمد، المسند، شرح أحمد محمد شاكر وحمزة أحمد الزّين، ط1، دار الحديث، القاهرة، 1995/1416، عن جابر بن عبد الله برقم: 15093و15094، المجلد 12، ص: 85. وعن عبد الله ابن ثابت برقم: 15808، المجلد 12، ص: 350 وبرقم: 18251، المجلد14، ص:142.

32 أنظر : ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج3، ص:2103 وما بعدها، 2164 وما بعدها.السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص:643 وما بعدها، 671-679.

33 الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 2، ص:333. السيوطي، معترك الأقران، ج 1، ص:329. وانظر: فتحي أحمد عامر، المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، ص:367.

34 فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، ص:200.

35 السيوطي، معترك الأقران، ج1، ص:329. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص:333.

36 الزركشي، المصدر نفسه، ج2، ص:327.

37 انظر: يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ط1، دار الشروق، القاهرة، مصر، 1999/1419، ص:238.

38 انظر: عبد القادر عبد الجليل، الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، ط 1، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2002/1422، ص:213،214. عبد الرحمن بودرع، منهج السياق في فهم النص، بحث نشر في مجلة كتاب الأمة، وهي سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف، والشؤون الإسلامية، الدوحة، قطر، السنة 26، العدد 111، ط1، محرم 1427، فبراير 2006، ص: 26.
وللاستزادة ينظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب: أسسه وتطوره إلى القرن السادس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجامعة التونسية، 1981، ص:302، وما بعدها.

39 انظر: السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص: 83.

40 انظر تفصيل القصة : ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 3 ، ص: 1903-1905 . السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص: 567-569 .

41 سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد6، ص:3925، وانظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 30، ص:399.

42 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص:3115.

43 أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط5، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1996/1417، ج20، ص:71.

44 سيد قطب، في ظلال القرآن، (6/ 3929).

45 محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص:408.

46 الحديث رواه أبوهريرة عن النبيّ صلّى الله عليه و سلّم أنّه قال: « ما من مولود إلّا و يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسّون فيها من جدعاء، ثم يقول: ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم﴾ » متفق عليه. أخرجه البخاري ومسلم. أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، صحيح البخاري، مراجعة محمد علي القطب، وهشام البخاري، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1997/1417، ج3، ص:1502. مسلم، صحيح مسلم، المجلد 4، ج8، ص:52، بزيادة « ثمّ يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم ... الآية ».

[47] انظر: الزمخشري، الكشّاف، ج2، ص:1366. أبو سعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج 9، ص:176. سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد 6، ص:3934. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 30، ص:432. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 20، ص:79. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص:3119. السيوطي، الدرّ المنثور، ج6، ص:622.

[48] القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق: عامر الجزار، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2004/1425، ص:188. الملا علي القاري، شرح الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ج1، ص:576، 577.